

السَّعِيدُ حَسَنُ

السَّعِيدُ حَسَنُ

تأليف
كامل كيلاني



رقم إيداع ١٦٤٠٦/٢٠١٢

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٠٠٧ ٧

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: ورود الصاوي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

السَّعِيدُ حَسَنُ

(١) حَدِيثُ الْجَدَّةِ



جَلَسْتُ رَاوِيَةً هَذِهِ الْقِصَّةَ بَيْنَ أَوْلَادِهَا وَحَفَدَتِهَا، أَعْنِي: أَوْلَادَ أَوْلَادِهَا.
كَانَتْ الْجَدَّةُ — حَيْنِئِذْ — فِي الثَّمَانِينَ مِنْ عُمْرِهَا. وَقَدْ تَعَوَّدَ الْحَفَدَةُ — مِنْ بَنِينَ
وَبَنَاتٍ — أَنْ يَجْتَمِعُوا حَوْلَهَا قُبِيلَ النَّوْمِ؛ لِيَسْتَمِعُوا مِنْهَا طَرَائِفَ مِنَ الْقَصَصِ، وَبَدَائِعَ
مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَسْمَارِ.

وَكَانَتْ اللَّيْلَةُ مِنْ لَيَالِي الشِّتَاءِ الْبَارِدَةِ.
جَلَسَ الْحَفَدَةُ مُلتَفِّينَ حَوْلَ جَدَّتِهِمُ الْعُجُوزِ، يَسْأَلُونَهَا — عَلَى عَادَتِهِمْ — أَنْ تُحَدِّثَهُمْ
بِعَجِيبَةٍ مِنْ أَقَاصِيصِهَا الْمُبْدَعَةِ الَّتِي أَلْفُوا سَمَاعَهَا مِنْهَا.
فَأَسْرَعَتْ إِلَى تَلْبِيَةِ رَجَائِهِمْ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ، تَرْوِي لَهُمُ الْقِصَّةَ التَّالِيَةَ: فَأَرْهَفُوا لَهَا
أَذَانَهُمْ مُنْصِتِينَ.

قَالَتْ الْجَدَّةُ الْعُجُوزُ: «مَا أَعْجَبَ سَيْرَ الزَّمَنِ، وَمَا أَسْرَعَ كَرَّ الْأَيَّامِ، وَمَرَّ الْأَعْوَامِ!
لَقَدْ سَمِعْتُ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْمُعْجِبَةَ مُنْذُ سَبْعِينَ عَامًا، وَلَا أَزَالُ — اللَّيْلَةَ — أَذْكُرُهَا؛
كَأَنَّمَا سَمِعْتُهَا مِنْ جَدَّتِي الْبَارِحَةِ (أَقْرَبَ لَيْلَةٍ مَضَتْ).
وَمَا زَالَتْ حَوَادِثُهَا تَتَمَثَّلُ فِي خَاطِرِي، وَصَوْتُ جَدَّتِي الْعَذْبُ الْحَنُونُ يَرِنُ فِي أُذُنِي!
كُنْتُ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمْرِي حَيْنِئِذْ، أَيُّ: فِي مِثْلِ سَنِّكَ، يَا «نَجِيبُ».
وَكُنْتُ أَصْغَرَ مِنْ إِخْوَتِي، كَمَا أَنْتَ — يَا «نَجِيبُ» — أَصْغَرُ مِنْ إِخْوَتِكَ.
وَكَانَتْ الْأَرْضُ مُغَطَّاءَةً بِمَا تَسَاقَطَ مِنَ الثَّلْجِ فِي الصَّبَاحِ.
فَلَمَّا جَاءَ اللَّيْلُ، شَهِدْنَا لَيْلَةً كَانَتْ — عَلَى شِدَّةِ بَرْدِهَا — صَافِيَةً السَّمَاءِ، لِامِعَةً النُّجُومِ.
وَأَخَذَتِ الْأُسْرَةُ تَحْتَفِي بِالْعِيدِ كَمَا نَحْتَفِي بِهِ الْآنَ.

(٢) أَسْعُدِ النَّاسِ

وَكَانَتْ جَدَّتِي قَدْ وَعَدْتُنَا أَنْ تَقْصَّ عَلَيْنَا — مَتَى حَلَّتْ لَيْلَةُ الْعِيدِ — قِصَّةَ «السَّعِيدِ حَسَنِ».
فَلَمَّا ذَكَّرْنَاها وَعَدَهَا قَالَتْ: «لَعَلَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ «السَّعِيدَ حَسَنًا» كَانَ سُلْطَانًا مِنْ
السَّلَاطِينِ، أَوْ أَمِيرًا مِنَ الْأُمَرَاءِ.
لَكُمُ الْعُذْرُ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَحْسَبُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ لَا تُوْجَدُ إِلَّا حَيْثُ الْغِنَى وَالْجَاهُ.

سَتَبَيِّنُونَ — بَعْدَ سَمَاعِ قِصَّتِهِ — أَنَّ مَنْ يَظُنُّونَ مِثْلَ هَذَا الظَّنِّ بَعِيدُونَ عَنِ الصَّوَابِ،
بَعْدَ الْأَرْضِ عَنِ السَّمَاءِ:

لَمْ يَكُنِ «السَّعِيدُ حَسَنٌ» سُلْطَانًا وَلَا أَمِيرًا، وَلَا وَزِيرًا. كَلَّا، لَمْ يَكُنْ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ.
بَلْ لَعَلَّهُ كَانَ فِي عَصْرِهِ مِنْ أَفْقَرِ الْفُقَرَاءِ. وَلَكِنَّهُ عَاشَ — مَعَ هَذَا — مِنْ أَسْعَدِ النَّاسِ.
لَقَدْ صَدَقَ «السَّعِيدُ حَسَنٌ» حِينَ كَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ دَائِمًا: «إِذَا عَجَزَ الْإِنْسَانُ عَنْ أَنْ
يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ، فَلَنْ يَعْجَزَ عَنْ أَنْ يَكُونَ أَشْرَفَ النَّاسِ. لَنْ يُكَلِّفَهُ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ
يَتَحَلَّى بِالشَّجَاعَةِ وَالصَّدْقِ وَكَرَمِ النَّفْسِ.»

(٣) عِيدُ الْفَقِيرِ

لَعَلَّكُمْ تَذَهِّشُونَ إِذَا قُلْتُمْ لَكُمْ: إِنَّ «السَّعِيدَ حَسَنًا» كَانَ فَلَاحًا فَقِيرًا، يَعْيشُ فِي كُوخٍ صَغِيرٍ،
تُحِيطُ بِهِ بَعْضُ الْحَشَائِشِ، عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ غَابَةِ كَثِيفَةٍ، مَمْلُوءَةٍ بِالْأَشْجَارِ.
وَقَدْ أَقْعَدَهُ الْمَرَضُ عَنِ الْعَمَلِ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ أَقْبَلَ الْعِيدُ عَلَى الْأُسْرَةِ وَلَيْسَ فِي الْكُوخِ
أَكْثَرُ مِنَ الْخُبْزِ الْيَابِسِ: الْخُبْزِ الْيَابِسِ وَحْدَهُ.
أَمَّا الْحَلْوَى وَالْفَطَائِرُ وَاللَّحْمُ وَاللَبَنُ وَالْقِشْدَةُ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ الْأَوَانِ الطَّعَامِ، فَقَدْ بَعُدَ
عَهْدُ الْأُسْرَةِ بِهِ، فَانْسِيَتْهُ.

عَلَى حِينٍ كَانَ الْأَغْنِيَاءُ يَحْتَفِلُونَ بِالْعِيدِ، وَمَوَائِدُهُمْ تَزَخَّرُ بِمَا لَدَّ وَطَابَ مِنَ الْأَطْعِمَةِ
الشَّهِيَّةِ، وَالْأَشْرَبَةِ السَّائِغَةِ الْهَنِيَّةِ.

عَلَى أَنَّ الْبُؤْسَ وَالْفَاقَةَ لَمْ يَنَالَا مِنْ نَفُوسِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ الطَّيِّبَةِ الْخَيْرَةِ مَنَالًا.
لَبِثَ رَبُّ الْأُسْرَةِ وَزَوْجُهُ الْمَرِيضَانِ صَابِرَيْنِ، لَمْ يَفْقِدَا الثِّقَةَ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانَ بِهِ، وَلَمْ
يَيَأْسَا مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَمْ تَعْرِفِ الشُّكْوَى إِلَى قَلْبَيْهِمَا سَبِيلًا.

كَانَا يُؤَلَّانِ أَطْفَالًا أَرْبَعَةً، بَرَّحَ بِهِمُ الْجُوعُ، وَاشْتَدَّ بِهِمُ الضَّعْفُ وَالْهَزَالُ؛ فَأَصْبَحُوا
لَا يَكَادُونَ يَسْتَطِيعُونَ الْحَرَكَةَ. فَجَلَسُوا مُتَلَصِّقَيْنِ: بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، عَلَى صُنْدُوقٍ قَدِيمٍ
مِنَ الْخَشَبِ الْبَالِي، إِلَى جِوَارِ قِطْعَةٍ خَشَنَةٍ مِنَ الْحَصِيرِ، اتَّخَذُوهَا مَقْعَدًا لِحُلُوسِهِمْ نَهَارًا،
وَفِرَاشًا لِنَوْمِهِمْ لَيْلًا.

لَمْ تَتَمَّاكَ امْرَأَةُ الْحَطَّابِ — فِي لَيْلَةِ الْعِيدِ — أَنْ تَذْرِفَ مِنْ عَيْنَيْهَا دُمْعَتَيْنِ، بَعْدَ أَنْ
أَطَالَتْ تَفَكُّرَهَا فِيمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ حَالُهَا وَحَالُ أَوْلَادِهَا مِنَ الْعُوزِ وَالْفَاقَةِ.
لَكِنَّهَا سُرْعَانَ مَا نَدِمَتْ عَلَى اسْتِسْلَامِهَا لِلضَّعْفِ، وَخَشِيتُ أَنْ يَفْطُنَ إِلَيْهَا أَطْفَالُهَا
الصَّغَارُ، فَتَكُونَ لَهُمْ مَثَلًا سَيِّئًا.



كَفَكَتْ دُمْعَتَيْهَا فِي الْحَالِ، وَالتَفَتَتْ قَائِلَةً: «هَلُمُّوا أَيُّهَا الْأَطْفَالُ الصَّابِرُونَ، هَلُمُّوا
نَبِّهْلُ إِلَى اللَّهِ دَاعِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا هَذَا الْبَلَاءَ، وَيُفَرِّجَ هَذِهِ الضَّائِقَةَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ دَعْوَةَ
الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ.»

وَجَاءَ الْمَسَاءُ مُظْلِمًا بَارِدًا، وَبَدَأَتِ السَّهْرَةُ الْعَابِسَةُ، لِهَذِهِ الْأُسْرَةِ الْفَقِيرَةِ التَّاعِسَةِ.
كَانَ خَيْرًا لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ رَقَدُوا قَبْلَ أَنْ يَذَرِكَهُمُ اللَّيْلُ؛ فَإِنَّهُمْ — إِذْ يَنَامُونَ — يَنْسَوْنَ
الْأَمَّهُمْ.

لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءَ الْأَخْيَارَ أَبَوْا إِلَّا أَنْ يَسْتَقْبِلُوا الْعِيدَ بِالسَّهْرِ، وَيَقْطَعُوا لَيْلَهُ بِالْحَدِيثِ
وَالسَّمْرِ.

وَلَمَّا رَجَعَ أَبُوهُمْ إِلَى بَيْتِهِ قَالَ لَهُمْ: «أَعَادَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْعِيدَ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَاتِ». فَرَدُّوا عَلَيْهِ تَحِيَّتهُ شَاكِرِينَ، مُبْتَهِجِينَ بِعَوْدَتِهِ فَرَحِينَ.

(٤) جِدْعُ الشَّجَرَةِ

ثُمَّ وَضَعَ الْأَبُ خَلْفَ بَابِ الْكُوخِ مِلْطَسَهُ وَفَأَسَهُ، وَقَالَ: «إِذَا كَانَتْ تَنْقُصُكُمْ مُتْعَةُ الْعِيدِ وَحُلُوَاهُ، فَلَا يَزَالُ أَمَامَكُمْ مَجَالٌ لِلْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ بِحَيَاةٍ وَالِدَيْكُمْ، وَبِمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ وَهُدُوءٍ بِال». لَيْسَ يَنْقُصُنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ إِلَّا الدَّفْءُ وَحْدَهُ. وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِهِ، وَهَيَّا لَنَا أَسْبَابَهُ.

فَلَنُحْضِرْ جِدْعَ «بَلُوطِ الْمَلِكِ»: هَذِهِ الشَّجَرَةُ الْمُجَاوِرَةُ لِبَيْتِنَا. فَقَالَ أَوْلَادُهُ: «أَتُعْنِي شَجَرَةُ «الْكُسْتَنَا» الْجَافَّةُ الَّتِي نُسَمِّيهَا: شَاهُ بَلُوط؟» فَقَالَ لَهُمْ بِاسْمًا: «لَسْتُ أَعْنِي غَيْرَهَا. وَقَدْ بَقِيَتْ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ دُونَ أَنْ نَفْكَرَ فِي الْإِنْتِفَاعِ بِهَا. ثُمَّ ذَكَرْتُهَا الْيَوْمَ؛ فَقَطَعْتُ جِدْعَهَا لِأَهْيِي لَكُمْ الدَّفْءَ. وَلَا أَكْتُمُ أَنَّي عَجَبْتُ مِنْ صَلَابَةِ هَذَا الْجِدْعِ وَثِقَلِهِ، وَأَنَا أَعْمَلُ فِيهِ فَأُسِي وَمِلْطَسِي. فَلَنُحْمَدِ اللَّهَ عَلَى مَا يَسِّرَ لَنَا مِنْ أَسْبَابِ النُّعْمَةِ وَالسُّرُورِ. نَحْنُ — عَلَى فَقْرِنَا — قَدْ أَصْبَحَ لَدَيْنَا اللَّيْلَةُ مِنْ وَسَائِلِ الدَّفْءِ مِثْلُ مَا عِنْدَ أَمِيرِ الْبَلَدِ فِي قَصْرِهِ.

إِذْهَبُوا — يَا أَوْلَادِي — وَجِئُوا بِالْجِدْعِ. فِي إِمْكَانِكُمْ — أَنْتُمْ الْأَرْبَعَةُ — أَنْ تُحْضِرُوهُ مَعًا. فَرِحَ الْأَوْلَادُ، وَخَرَجُوا — هُمْ وَأُمُّهُمْ — مِنَ الْكُوخِ، ثُمَّ عَادُوا يَحْمِلُونَ الْجِدْعَ الْكَبِيرَ. كَانَ الْجِدْعُ شَدِيدَ الثَّقَلِ كَمَا وَصَفَ أَبُوهُمْ؛ فَاتَّعَبَ الْأَبْنَاءُ حَمْلَهُ، حَتَّى بَلَّغُوا الْكُوخَ.

(٥) فِي الْمَوْقِدِ

وَمَا إِنْ وَضَعُوا الْجِدْعَ حَتَّى قَالُوا لِأَبِيهِمْ: «يُحْيِلُ إِلَيْنَا أَنَّ فِي الْجِدْعِ شَيْئًا خَفِيًّا، لَا نَدْرِي حَقِيقَتَهُ. لَيْنَ صَحَّ ظَنُّنَا لِيَكُونَنَّ هَذَا الْجِدْعُ مَسْحُورًا.»
فَقَالَ لَهُمُ وَالِدُهُمْ: «أَنْتُمْ تَحْلُمُونَ، يَا أَوْلَادِي. أَنْتُمْ لَمْ تَتَّعَوْدُوا أَنْ تَسْهَرُوا إِلَى مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ الْمَتَأَخَّرِ مِنَ اللَّيْلِ. لَا تَسْتَسْلِمُوا لِلْأَوْهَامِ. تَعَالَوْ نَضَعْ هَذَا الْجِدْعَ فِي النَّارِ لِنَتَدَفَّأَ عَلَيْهِ.»



تَعَاوَنَ الْوَالِدُ وَابْنُهُ الْبِكْرُ عَلَى وَضْعِ الْجِدْعِ الثَّقِيلِ فِي الْمَوْقِدِ، بَعْدَ أَنْ تَكَبَّدَا عَنَاءً شَدِيدًا فِي حَمْلِهِ؛ ثُمَّ جَمَعَ الْحَطَّابُ حُزْمَ الْأَخْشَابِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ قَبْلُ مَوْقِدَةً، فَأَدْنَاهَا إِلَى الْجِدْعِ لِتَشْعَلَهُ.
ثُمَّ جَلَسَتِ الْأُسْرَةُ كُلُّهَا مُسْتَسْلِمَةً لِلتَّفَكِيرِ — فِي صَمْتٍ — عَلَى مَقَاعِدِ الْحَشَبِ، حَوْلَ الْمَوْقِدِ، لِيَبْهَجُوا نَفُوسَهُمْ بِرُؤْيَا جِدْعِ الشَّجَرَةِ وَهُوَ يَحْتَرِقُ.

(٦) سُكَّانُ الْجَذَعِ

كَانَ الْجَذَعُ — كَمَا قَالَ أَبُوهُمْ — أَصْلَ شَجَرَةٍ مِنَ «الْكُسْتَنَّا». كَانَ جَذْعًا مُعَقَّدًا، أُيْبِسَتْهُ حَرَارَةُ الشَّمْسِ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ وَالسِّنِينَ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَشَقَّقَ وَكَثُرَتْ فِيهِ الثُّقُوبُ. كَانَتْ النَّارُ تَسْرِي فِي الْجَذَعِ بَطِيئَةً.

أَقْبَلَ رَبُّ الْأُسْرَةِ عَلَى أَبْنَائِهِ يَقْصُصُ عَلَيْهِمْ مِمَّا وَعَاهُ فِي طُفُولَتِهِ مِنْ عَجَائِبِ الْأَسْمَارِ. كَانَ الدُّخَانُ يَتَصَاعَدُ مِنَ الْمَوْقِدِ حَلَقَاتٍ حَلَقَاتٍ. سُرْعَانَ مَا بَرَزَتْ فَجَاءَةً مِنْ أَحَدِ ثُقُوبِ الْجَذَعِ نَحْلَةٌ خَائِفَةٌ مُرْتَاعَةً، وَهِيَ نَطْنُ وَتَهْزُ جَنَاحَيْهَا الشَّفَافَيْنِ.

لَا تَسْأَلُوا عَمَّا اسْتَوَلَى عَلَى الْأُسْرَةِ مِنَ الرُّعْبِ وَالْفَزَعِ حِينَ رَأَوْا نَحْلَةً ثَانِيَةً تَنْدَفِعُ مِنَ الثَّقَبِ، تَتْبَعُهَا ثَالِثَةٌ، فَارْبَعَةٌ، وَهَكَذَا، حَتَّى تَأْلَفَ مِنْهَا ثَوْلٌ (جَمَاعَةٌ مِنَ النَّحْلِ). انْطَلَقَ الثَّوْلُ يَطِيرُ فِي أَرْجَاءِ الْكُوخِ حَائِرًا، لَا يَعْرِفُ لَهُ وَجْهَةً يَقْصِدُ إِلَيْهَا.

(٧) حَدِيثُ النَّحْلَةِ



اسْتَقَرَّتْ مَلِكَةُ النَّحْلِ عَلَى قِمَّةِ كُومَةٍ مِنَ الْحَطَبِ.
 ظَلَّتْ تَشْحَدُ إِبْرَتَهَا (تُحْدِثُهَا) بِرِجْلَيْهَا، وَتَقُولُ لِلْأُسْرَةِ فِي غَضَبٍ شَدِيدٍ: «يَا لَكُمْ مِنْ
 فُسَاةِ الْقُلُوبِ! لِمَاذَا تُحْرِقُونَ مَسْكِنَنَا؟
 لَقَدْ اخْتَرْتُ — أَنَا وَإِخْوَانِي — ثَقَبَ هَذَا الْجَذْعِ، لِنَرْقُدَ فِيهِ بِهُدُوءٍ طُولَ الشِّتَاءِ، حَتَّى
 يَجِيءَ الرَّبِيعُ فَنَسْتَأْنِفَ فِيهِ أَعْمَالَنَا النَّافِعَةَ.
 مَاذَا أَفَدْتُمْ مِنْ إِزْعَاجِنَا، وَطَرَدِنَا مِنْ مَسْكِنِنَا الْأَمِينِ وَتَشْتِيتِ جَمْعِنَا؟ تُرَى: أَيْنَ نَذْهَبُ
 وَكَيْفَ يَكُونُ مَالُنَا؟ كَيْفَ نَحْتَمِلُ بَرْدَ الشِّتَاءِ الَّذِي تَضَعُفُ فِيهِ أَجْسَادُنَا؟»
 فَبَادَرَتْ الْأُمُّ قَائِلَةً: «لَا تَحْزَنِي — أَيُّهَا النَّحْلَةُ الطَّيِّبَةُ — وَلَا تَتَأَلَّمِي؛ فَمَا نُرِيدُ بِأَحَدٍ
 سُوءًا.

كُنَّا نَجْهَلُ أَنَّكَ سَاكِنَاتٌ فِي هَذَا الْجَذْعِ. لَوْ عَرَفْنَا هَذَا مَا أَرْعَجْنَا وَاحِدَةً مِنْكُمْ.
 كُنْ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّكَ لَنْ تَبْقَيْنَ طَوِيلًا بِغَيْرِ مَأْوَى، وَلَنْ تَتَعَرَّضْنَ لِبَرْدِ الشِّتَاءِ الْقَارِسِ
 وَزَمَهِرِيرِهِ.
 هَاكُنَّ بَيْنَنَا. أَقْمِنِ فِيهِ عَلَى الرُّحْبِ وَالسَّعَةِ أَمِنَاتٍ مُطْمَئِنَّاتٍ، وَاخْتَرْنَ فِيهِ مَكَانًا حَارًّا
 مُوَافِقًا لِارْحَاتِكُنَّ.
 إِنِّي لَيْسَعِدُنِي أَنْ تُقْمِنَ عِنْدَنَا فَلَا تُفَارِقُنَا أَبَدًا. تَعَالَيْنِ، أَيُّهَا النَّحْلُ. لَنْ تَرَيْنِ إِلَّا مَا
 يَسُرُّكَ. لَنْ يُكْذِرَ أَحَدٌ صَفَاءَ الرَّاحَةِ وَالنُّوْمِ عَلَيْكَ.
 لَنْ يَمَسَّ أَحَدٌ خَلِيَّتَكَ. كَلَّا، لَنْ يَشْتَارَ (لَنْ يَجْنِيَ) شَيْئًا مِمَّا جَمَعْتُنَّ مِنَ الشُّهُدِ، يَا
 أَمِيرَةَ النَّحْلِ. هَاكِ ثَغْرَةً أَمَامَكَ فِي حَائِطِ الْكُوخِ، عَلَى يَمِينِ الْمُوقِدِ؛ فَهَلْ تَرَيْنَهَا تُوَافِقُكَ أَنْتِ
 وَرَفِيقَاتُكَ؟»

أَعْجَبَتْ أَمِيرَةَ النَّحْلِ بِأَدَبِهَا فَقَالَتْ: «شُكْرًا لَكِ، أَيُّهَا الْمَرْأَةُ الطَّيِّبَةُ. أَنْتُمْ — عَلَى مَا أَرَى
 — أَهْلٌ لِلتَّكْرِيمِ. أَنَا أَقْبَلُ الضِّيَافَةَ بِسُرُورٍ وَابْتِهَاجٍ. سَنَعِيشُ جَمِيعًا تَحْتَ سَمَاءِ هَذَا الْبَيْتِ
 الْوَادِعِ الْجَمِيلِ. لَنْ تَفُوتَنَا السَّعَادَةُ فِيهِ.»

طَارَتْ مَلِكَةُ النَّحْلِ إِلَى الثَّغْرَةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْمُوقِدِ، ثُمَّ تَبِعَهَا التَّوَلُّ (جَمَاعَةُ النَّحْلِ) وَاخْتَفَيْنِ
 جَمِيعًا فِي الْخَلِيَّةِ.

(٨) حَدِيثُ الطَّائِرِ

الْتَهَبَ الْجِدْعُ فَانْبَعَثَتْ مِنْهُ — فَجَاءَتْ — صَرْخَةً أَلَمَ مِنْ طَائِرٍ صَغِيرٍ، خَرَجَ مِنْ ثَقَبٍ آخَرَ. ظَلَّ الطَّائِرُ الصَّغِيرُ يُرْفِرِفُ بِجَنَاحَيْهِ الْأَزْرَقَيْنِ بِسُرْعَةٍ، ثُمَّ اسْتَقَرَّ عَلَى مَسْنَدٍ كُرْسِيِّ، وَقَالَ لِلْحَطَّابِ وَزَوْجِهِ بِصَوْتٍ عَالٍ، فِيهِ رَنَّةُ الْغَضَبِ: «شَدَّ مَا قَسَوْنُمَا عَلَيَّ، إِذْ تُخَرِّبَانِ بَيْتِي وَتُحْرِقَانِي».

كُنْتُ رَاقِدًا فِي ثَقَبٍ مِنْ هَذَا الْجِدْعِ مُطْمَئِنًّا. كُنْتُ أَمْلُ أَنْ أَظَلَّ نَائِمًا رَيْثَمَا يَنْتَهِي فَصْلُ الْبَرْدِ، وَتَهَبُ نَسَمَاتُ الرِّبْعِ اللَّطِيفَةِ، وَتَسْتَقِظُ الْأَزْهَارُ. لَكِنَّ سَوْءَ حَظِّي قَادَكُمَا إِلَيَّ؛ فَأَبَيْتُمَا إِلَّا أَنْ تُزْعِجَانِي، وَتُعَرِّضَانِي لِلْهَلَاكِ بَيْنَ الْعَوَاصِفِ وَتَحْتَ الثَّلُوجِ».



هُنَا قَالَتْ زَوْجَةُ الْحَطَّابِ: «كَلَّا. لَنْ تَمُوتَ، أَيُّهَا الطَّائِرُ الظَّرِيفُ. سَتَجِدُ فِي قُرْبِ مَوْقِدِنَا دِفْئَكَ وَمَأْوَاكَ، حَيْثُ يَغْمُرُكَ حُبُّنَا، وَيُعْذِّكَ فُتَاتُ مَا بَدَّتِنَا. وَمَتَى جَاءَ الرَّبِيعُ: فَصَلُّ

الْأَزْهَارِ، وَاعْتَدَلَ الْجَوْ، بَنَيْتَ — إِنْ شِئْتَ — عُسًا لِأَفْرَاحِكَ، بَيْنَ الْأُورَاقِ، مِنْ الْحَشَائِشِ الصَّغِيرَةِ.»

فَرِحَ الطَّائِرُ الْأَزْرَقُ وَقَالَ: «شُكْرًا لَكَ، مَا أَكْرَمَكَ!» ثُمَّ طَارَ وَاسْتَقَرَّ عَلَى الصَّوَانِ (دُولَابِ الثِّيَابِ) الْقَدِيمِ الْمُحَطَّمِ.

(٩) حَدِيثُ الضُّفْدِعِ

خَرَجْتُ مِنْ ثَقَبٍ ثَالِثِ ضَفْدِعٍ غَضَبِي، مُنْتَفِخَةً غَيْظًا. جَلَسَتِ الضُّفْدِعُ عَلَى مُقَدَّمَةِ الْمُوقِدِ. كَانَ حَجْمُ الضُّفْدِعِ أَكْبَرَ مِنْ قَبْضَتِي الْيَدَيْنِ مُجْتَمِعَتَيْنِ. انْفَتَحَ فَمُهَا، وَتَدَلَّى لِسَانُهَا الطَّوِيلُ مِنْهُ. بَرَزَتْ مِنْ رَأْسِهَا عَيْنَانِ صَفْرَاوَانِ نَجْلَاوَانِ (وَاسِعَتَانِ).

تَرَاجَعَ الْأَطْفَالُ مَذْهُوشِينَ حِينَ رَأَوْهَا، وَاسْتَمَعُوا إِلَيْهَا، وَهِيَ تَقُولُ بِصَوْتٍ كَالرَّعْدِ: «تَبًّا لَكُمْ مِنْ قُسَاةٍ! كَيْفَ تَجْرُؤُونَ عَلَى تَخْرِيبِ بَيْتِي وَإِحْرَاقِ مَسْكِنِي، بَعْدَ أَنْ عِشْتُ فِيهِ مَا نَتَّى عَامَ كَامِلَةٍ، لَمْ أُسَى خِلَالَهَا إِلَى أَحَدٍ؟»

أَقْبَلَ عَلَيْهَا الْحَطَّابُ الشُّجَاعُ قَائِلًا: «هَدَّيْنِي مِنْ رُوعِكَ (سَكْنِي مِنْ خَوْفِكَ)، أَيْتُهَا الضُّفْدِعُ الْكَرِيمَةُ. أَيْقِنِي أَنَّنَا لَمْ نَفْكَرْ — لَحْظَةً — فِي إلْحَاقِ الْأَذَى بِكَ وَلَا بَعْدِكَ. لَنْ تَبْقَى بَعْدِي سَكْنٌ. هَاكَ جُحْرًا عَمِيقًا تَحْتَ الْمُوقِدِ. اتَّخِذِيهِ — إِنْ شِئْتَ — سَكْنًا هَادِنًا لَكَ.

سَتَجِدِينَ فِيهِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ قَرَارٍ وَدِفءٍ. سَنُعْطِيكَ — كُلَّ يَوْمٍ — مَا يُغْذِيكَ مِنْ الْكُسْتَنَاءِ، وَالْخَضَرِ الْمَسْلُوقَةِ. لَوْ كُنَّا أَحْسَنَ حَالًا لَقَدَّمْنَا لَكَ كُلَّ مَا تَشْتَهِينِ.»

فَرِحَتِ الضُّفْدِعُ وَقَالَتْ: «يَا لَكَ مِنْ كَرِيمٍ! شُكْرًا لَكَ. أَنْتَ دَلِيلٌ عَلَيَّ أَنَّ فِي الْعَالَمِ أَخْيَارًا شُرَفَاءَ. إِنِّي لَيْسَعُدْنِي أَنْ أَكُونَ ضَيْفَكَ.»

ثُمَّ قَفَزَتِ الضُّفْدِعُ مُتَبَاطِئَةً حَتَّى دَخَلَتْ الْجُحْرَ.

(١٠) حَدِيثُ الْحَطَّابِ

بَعْدَ قَلِيلٍ، خَرَجَ الْحَطَّابُ وَزَوْجُهُ وَأَوْلَادُهُمَا، بَعْدَ أَنْ اسْتَأْذَنُوا ضُيُوفَهُمْ.
 انْطَلَقُوا يَتَحَدَّثُونَ — فِي أَثْنَاءِ تَجَوُّالِهِمْ — عَمَّا رَأَوْهُ مِنَ الْعَجَبِ فِي لَيْلَتِهِمْ.
 قَالَ الْوَالِدُ لِابْنَيْهِ: «هَآ أَنتُمُ أَوْلَاءُ تَرَوْنَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ — عَلَى قَلَّةِ مَالِهِ — أَنْ
 يَعْيشَ سَعِيدًا. كَمَا تَرَوْنَ أَنَّهُ قَادِرٌ — مَهْمَا يَبْلُغُ بِهِ الْفَقْرُ — عَلَى أَنْ يُقَدِّمَ الْمَعْرُوفَ لِمَنْ
 هُوَ أَوْعَفُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَتَعَسُّ حَالًا.
 إِذَا أَرَدْتُمْ السَّعَادَةَ الْحَقَّ، فَلَا تَتَرَدَّدُوا فِي إِسْعَادِ مَنْ تَسْتَطِيعُونَ إِسْعَادَهُ. لَنْ يَكْمُلَ
 الْإِنْسَانُ إِلَّا إِذَا جَمَعَ بَيْنَ حُسْنِ النِّيَّةِ وَحُسْنِ الْعَمَلِ.»

(١١) الْقَصْرُ الْجَدِيدُ

مَشَوْا فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى كُوْخِهِمْ، وَقَدْ اِمْتَلَأَتْ نَفُوسُهُمْ فَرَحًا وَإِبْنَسًا، وَثِقَةً وَاطْمِئْنَانًا، بِمَا
 نَعِمُوا بِهِ مِنْ مَنَاطِرَ فَاتِنَةٍ، تَحْتَ السَّمَاءِ: تِلْكَ الْقُبَّةِ الزَّرْقَاءِ، الَّتِي انْتَشَرَتْ فِيهَا النُّجُومُ
 الْبَدِيعَةُ.
 كَانَ الْجُوعُ قَدْ اشْتَدَّ بِهِمْ، فَاسْرَعُوا لِيَأْكُلُوا مَا أَعَدَّوْهُ فِي دَارِهِمْ، مِنْ خُبْزٍ يَابِسٍ،
 وَحَسَاءٍ قَلِيلٍ.
 وَلَكِنَّهُمْ شَدَّ مَا دَهَشُوا إِذْ رَأَوْا نُورًا يَظْهَرُ لِأَعْيُنِهِمْ — فَجَاءَةً — مِنْ بَعِيدٍ، خُيِّلَ إِلَيْهِمْ
 أَنَّهُ يَنْبُعُ مِنْ دَارِهِمْ. لَكِنَّهُمْ لَمْ يَصْدَقُوا أَعْيُنَهُمْ.
 وَلَمَّا اقْتَرَبُوا مِنَ الْبَيْتِ رَأَوْا أَضْوَاءً لَا عَهْدَ لَهُمْ بِمِثْلِهَا: رَأَوْا مَكَانَ الْكُوْخِ قَصْرًا فَاجِرًا،
 مَكْتُوبًا عَلَيْهِ: «السَّعِيدُ حَسَنُ الْحَطَّابِ».
 كَادُوا يَحْسَبُونَ — لَوْلَا هَذَا اللَّوْخُ الْمَكْتُوبُ — أَنَّهُمْ ضَلُّوا الطَّرِيقَ فَدَخَلُوا قَصْرَ
 الْأَمِيرِ. وَزَادَ مِنْ دَهْشَتِهِمْ أَنَّ قَصْرَ أَمِيرِهِمْ لَيْسَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْفَخَامَةِ وَالرَّوْعَةِ، وَلَيْسَ فِيهِ
 مِثْلُ هَذَا الْأَثْنِ الْبَدِيعِ.
 رَأَوْا مَائِدَةً كَبِيرَةً حَافِلَةً بِالصَّحَافِ وَالْأَطْبَاقِ، وَإِلَى جَانِبِهَا كِرَاسِيٌّ لَهَا كِسْوَةٌ مِنْ
 الْمُخَمَلِ (النَّسِيجِ فِيهِ قَطِيفَةٌ) الْأَحْمَرِ، مُزَرَّكَشَةٌ بِالذَّهَبِ، وَقَدْ غَصَّتِ الْمَائِدَةُ بِأَجْمَلِ الْأَزْهَارِ
 وَالْوُرُودِ.



وَالْيَكْمُ بَعْضُ مَا حَوَتْهُ الْمَائِدَةُ:
هَذَا دِيكَ رُومِي كَبِيرٌ مَقْلِي بِالسَّمْنِ. إِلَى جَانِبِهِ لَذَائِدُ مِنَ الشَّوَاءِ يَتَطَايَرُ قُتَارُهَا الشَّهِي
(رَائِحَتُهَا اللَّذِيذَةُ).
عَلَى مَسَافَةٍ قَلِيلَةٍ مِنْهُ كُومَةٌ مِنْ شَمْعِ الشُّهْدِ (عَسَلِ النَّحْلِ)، فِي مِثْلِ صُفْرَةِ الذَّهَبِ
الْخَالِصِ.

إِلَى الْيَسَارِ جَمِيعُ أَصْنَافِ الْفَوَاكِهِ، مِنْ: تَفَاحٍ وَكُمَّثَرَى وَبُرْتُقَالٍ وَعِنَبٍ.
هُنَا أَدْرِكُوا أَنَّ الطَّائِرَ وَالنَّحْلَةَ وَالضَّفْدِعَ إِنَّمَا قَصَدُوا إِلَى مُكَافَأَتِهِمْ عَلَى مَعْرِفِهِمْ
فَأَعَدُوا لَهُمْ هَذِهِ الْمُفَاجَأَةَ السَّارَةَ.
الْتَفَتَتْ إِلَيْهِمُ الضَّفْدِعُ قَائِلَةً: «نَحْنُ جَنِّيَاتُ الشَّجَرَةِ وَحَارِسَاتُهَا. أَرَدْنَا أَنْ نَجْزِيَكُمْ
عَلَى صَبْرِكُمْ وَمَعْرِفَتِكُمْ خَيْرًا. إِنْتَهَزْنَا فُرْصَةَ الْعِيدِ لِتَحْقِيقِ مَا أَرَدْنَا.»

هُنَا تَحَوَّلَتِ الضُّفْدُ طَاهِيًا صَنَاعًا كَبِيرَ الْبَطْنِ، أَحْمَرَ الْوَجْهِ، يَفِيضُ مُحْيَاهُ (وَجْهَهُ) بَشْرًا وَسُرُورًا، وَعَلَى صَدْرِهِ فُوطَتَانِ كَبِيرَتَانِ بَيضَاوَانِ. تَفَنَّنَتِ الضُّفْدُ فِي صُنْعِ الْحُلُوى لَهُمْ.

أَقْبَلَتْ مَلَكَ النَّحْلِ سَاهِرَةً عَلَى خِدْمَتِهِمْ، فِي صُورَةٍ فَتَاةٍ رَائِعَةٍ الْحُسْنِ، عَلَى رَأْسِهَا خِمَارٌ (سِتَارٌ) حَرِيرِيٌّ مُزْرَكَشٌ بِالذَّهَبِ.

ظَهَرَ الطَّائِرُ فِي هَيْئَةٍ مُوسِيقِيٍّ بَارِعٍ، يَزِيدِي سُرُورًا قَصِيرًا مِنَ الْمُخْمَلِ الْأَخْضَرِ، عَلَى رَأْسِهِ قَلَنْسُوَةٌ زَرْقَاءُ، مُحَلَّلَةٌ بِرِيَشِ النَّعَامِ. كَانَ يَغْرِفُ عَلَى الْعُودِ وَيُغْنِي أَطْيَبَ الْأَلْحَانِ. لَمَّا طَلَعَ الصُّبْحُ، رَأَوْا حَدِيقَةً غَنَاءً، تُحِيطُ بِقَصْرِهُمْ الْعَظِيمِ.

رَأَوْا خَزَانَةً كَبِيرَةً مَمْلُوءَةً بِأَثْمَنِ الْيَوَاقِيتِ وَأَنْفَسِ اللَّالِئِ الَّتِي لَا تُوْجَدُ فِي خَزَائِنِ الْمُلُوكِ.

مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، أَطْلَقَ النَّاسُ عَلَى الْحَطَّابِ لَقَبَ: «الْحَطَّابِ السَّعِيدِ»، بَعْدَ أَنْ كَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ لَقَبَ: الْحَطَّابِ الْفَقِيرِ.

(١٢) خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَلَمَّا انْتَهَتْ الْجَدَّةُ مِنْ قِصَّتِهَا، اِلْتَفَتَتْ قَائِلَةً: «هَكَذَا تَرَوْنَ — أَيُّهَا النُّجَبَاءُ — أَنَّ فِي قُدْرَةِ أَفْقَرِ إِنْسَانٍ أَنْ يُحْسِنَ إِلَى مَنْ هُوَ أَوْعَفُ مِنْهُ وَأَشَدُّ فَقْرًا، وَأَنْ فِعْلَ الْخَيْرِ لَنْ يَضِيعَ أَبَدًا، وَأَنَّ السَّعِيدَ الْحَقَّ لَيْسَ هُوَ الْغَنِيُّ الْكَثِيرُ الْمَالِ.

بَلْ هُوَ مَنْ يَرْتَاحُ إِلَى الْإِحْسَانِ وَالْإِبْرِ، وَتَبْهَجُ نَفْسُهُ بِعَمَلِ الْخَيْرِ وَصُنْعِ الْجَمِيلِ.»